أفول الإنسان العمومي

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات"، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى "سلسلة ترجمان" بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الأمينة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس "سلسلة ترجمان" وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات" الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

أفول الإنسان العمومي

ريتشارد سينيت

ترجمة
شوقي دويهي

مراجعة
باسم سرحان

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

سينيت، ريتشارد، 1943-

أفول الإنسان العمومي/ ريتشارد سينيت؛ ترجمة شوقي دويهي؛ مراجعة باسم سرحان.

512 صفحة؛ 24 سم. - (سلسلة ترجمان)

يشتمل على ببليوغرافية (صفحات 485-494) وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-714-6

1. التاريخ الاجتماعي. 2. التغير الاجتماعي. 3. الاجتماع، علم - تاريخ. 4. التفاعل الاجتماعي. 5. العادات والتقاليد. 6. الاغتراب الاجتماعي. أ. دويهي، شوقي (مترجم). ب. سرحان، باسم (مراجع). ج. العنوان. د. السلسلة.

306.09

هذه ترجمة مأذون بها حصريًا من الناشر لكتاب

The Fall of Public Man

by Richard Sennett

Copyright © 2017, 1976, 1974 by Richard Sennett

عن دار النشر

W. W. Norton & Company Ltd.

THE FALL OF PUBLIC MAN Copyright © 1977 by Richard Sennett

All rights reserved including the rights of reproduction in whole or in part in any form..

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن

اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر

شارع الطرفة - منطقة 70

وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر

هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174

ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان

هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 00961 1991839

البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org

الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

الطبعة الأولى

بيروت، تشرين الثاني/ نوفمبر 2025

كل شخص منكفئ على ذاته يتصرف كما لو أنه غريب عن مصير سائر الآخرين. أولاده وأصدقاؤه يَعُدّهم الجنسَ البشري كله. قد يخالط الناس الآخرين في أثناء تعامله معهم، لكنه لا يُبصرهم. قد يلمسهم، لكنه لا يشعر بهم. فهو لا يعيش إلا في ذاته ولذاته. وإذا بقي للعائلة من معنى لديه، فهذا المعنى ليس المجتمع على الإطلاق.

توكفيل

المحتويات

شكر وتقدير 11

القسم الأول
المسألة العمومية

الفصل الأول: الحيز العمومي 15
الحب خارج الحيز العمومي 19
فضاء عمومي ميت 26
تحولات الحيز العمومي 31
الماضي في الحاضر 42

الفصل الثاني: الأدوار 47
أدوار 53
الأدوار العمومية 58
الأدوار العمومية في المدن 60
برهان أم معقولية ظاهرية؟ 66

القسم الثاني
العالم العمومي للنظام القديم

الفصل الثالث: الجمهور: جمع من الغرباء 71
من الذي كان يفد إلى المدينة؟ 74

أماكن سكنهم 78
التحولات في البرجوازية المدينية 84
تبادلات في البَلاط والمدينة 89

الفصل الرابع: الأدوار العمومية 95
الجسد عارض أزياء 96
الكلام علامة 107
المجال اللاشخصي مجال انفعالي 127

الفصل الخامس: العمومي والخصوصي 129
هناك حدود للتعبير العمومي 132
التعبير الطبيعي ينشأ خارج المجال العمومي 135
العمومي والخصوصي أشبه بجزيء المجتمع 141
انقسام الجزيء 142

الفصل السادس: الإنسان بوصفه ممثلًا 153
نظرة الحس السليم إلى الإنسان بوصفه ممثلًا 155
مفارقة الممثل عند ديدرو 157
إدانة روسو للمدينة بوصفها مسرحًا 163
نبوءات روسو 172

القسم الثالث
انقلابات الحياة العمومية في القرن التاسع عشر

الفصل السابع: أثر الرأسمالية الصناعية في الحياة العمومية 183
هل كان ساكن المدينة في القرن التاسع عشر شخصية جديدة؟ 184
مركزة المدينة 187

المصادفة والحياة البرجوازية 193
السلع العمومية 198

الفصل الثامن: الشخصية في الحيز العمومي 211
الرؤية البلزاكية للشخصية بوصفها مبدأ اجتماعيًّا 216
الشخصية في العلن: صور الجسد الجديدة 225
المسرح يروي حقيقة لم يَعُد الشارع يقولها 243
الشخصية والأسرة الخاصة 246
التمرد على الماضي 255
خلاصة 269

الفصل التاسع: الناس العموميون في القرن التاسع عشر 271
الممثل 273
المُشاهد 284

الفصل العاشر: الشخصية الجماعية 303
1848: انتصار الشخصية الفردية على الطبقة الاجتماعية 309
الجماعة الأهلية 327
قضية دريفوس: الجماعة الأهلية المدمِّرة 330
من هو الراديكالي الحقيقي؟ 344

القسم الرابع
المجتمع الحميم

الفصل الحادي عشر: نهاية الثقافة العمومية 353

الفصل الثاني عشر: الكاريزما غير المتمدنة 365

نظريات الكاريزما 367
الكاريزما والضغينة 375
وسائل الإعلام الإلكترونية توطِّد صمت الماضي 382
النسق النجومي 388

الفصل الثالث عشر: تخلّي الجماعة الأهلية عن التمدّن 397
متاريس مبنية حول الجماعة الأهلية 400
متاريس مبنية من الداخل 406
التكاليف الإنسانية للجماعة الأهلية 416

الفصل الرابع عشر: الممثل المحروم من فنه 421
اللعب هو الطاقة التي تسمح بالتعبير العمومي 424
النرجسية تُضعِف الطاقة اللعبية 434
استنفار النرجسية وظهور طبقة اجتماعية جديدة 439
النرجسية هي الأخلاق البروتستانتية في الأزمنة الحديثة 447

خلاصة: ضروب طغيان الحميمية 453

خاتمة: ماذا حصل للمجال العمومي 459

ملحق: "إني أتَّهم" 473

المراجع 485

فهرس عام 495

شكر وتقدير

أود أن أشكر كليفورد كرزون (Clifford Curzon)، وموراي بيراهيا (Murray Perahia) على مساعدتي أولًا في تحديد الهدف من هذا الكتاب. وقد اعتمدت، خلال عملية الكتابة، على النقاشات البنّاءة مع كل من بيتر بروكس (Peter Brooks)، وكليفورد غيرتز (Clifford Geertz)، وريتشارد غيلمان (Richard Gilman)، وكارولين راند هيرون (Caroline Rand Herron)، وآن هولاندر (Anne Hollander)، إضافة إلى هربرت منزل (Herbert Menzel)، وأورست رانوم (Orest Ranum)، وكارل شورسكه (Carl Schorske)، وريتشارد تركسلر (Richard Trexler)، وليونيل تريلينغ (Lionel Trilling). وأود أيضًا أن أتوجه بالشكر إلى بن باربر (Ben Barber) وخوان كورادي (Juan Corradi) وماريون نوكس (Marion Knox) وليو ماركس (Leo Marx) وديفيد ريزمان (David Riesman) على ملاحظاتهم بشأن الكتاب. وأعرب عن امتناني الكبير لديفيس هيرون (Davis Herron) بشكل خاص، الذي أتاح لي الاستفادة من قراءته المتأنية للنص.

أجريت أبحاث هذا الكتاب بمساعدة مارسيا بيسترين (Marcia Bystryn) وبرنارد ماكغرين (Bernard MacGrane) ومارك سالمون (Mark Salmon) وكريستينا سبلمان (Christina Spellman). وأود خصوصًا أن أشكر مارسيا بيسترين على عملها الدؤوب والمتقن.

أخيرًا، أود أن أتوجه بالشكر إلى روبرت غوتليب (Robert Gottlieb) وأنغوس كاميرون (Angus Cameron) على نصائحهما في مسار تحرير هذا الكتاب. وقد أشرف بوبي بريستول (Bobbie Bristol) على عملية الإنتاج، وساعدني جاك لينش (Jack Lynch) في صقل لغة النص.

أود أن أتقدم بالشكر إلى أمناء المكتبات والمتاحف على مساعدتهم في كل من مكتبات "معهد الدراسة المتقدمة" (Institute for Advanced Study)، ومركز لينكولن للفنون المسرحية (Lincoln Center for the Performing Arts)، ومتحف متروبوليتان للفنون في نيويورك، وجامعة هارفرد، إضافة إلى المكتبة الوطنية الفرنسية، وجامعة كامبردج، وجامعة نيويورك. وقد وُفِّر الدعم المالي لأعمال البحث والكتابة من خلال المساعدة السخية التي قدّمها كل من معهد الدراسة المتقدمة، ومؤسسة جون سايمون غوغنهايم (John Simon Guggenheim Foundation)، ومؤسسة فورد. طُبع هذا الكتاب بمساعدة العاملين في "مركز أبحاث السياسات" (Center for Policy Research)، الذين أود أن أشكرهم على كفاءتهم الجمعية وروحهم المرحة.

القسم الأول

المسألة العمومية

الفصل الأول

الحيز العمومي

غالبًا ما تقارَن الأزمنة الحديثة بتلك الحقبة التي بدأت فيها الإمبراطورية الرومانية بالأفول. فكما آل انحلال روما الأخلاقي إلى زعزعة سيطرتها على الغرب، يقال إن انحلال الغرب الحديث أفقده القدرة على حكم العالم. وعلى الرغم من طابع هذه الفكرة السخيف إلى حد ما، فإنها تتضمن جانبًا من الحقيقة. فهناك توازٍ مُعيَّن بين أزمة المجتمع الروماني بعد وفاة أغسطس والحياة المعاصرة. ويعود هذا التوازي إلى التوازن بين الحياة العمومية والحياة الخصوصية.

عند نهاية الحقبة التي تسمى أغسطية، بدأ الرومان يَعُدّون حياتهم العمومية واجبًا شكليًّا محضًا. فالاحتفالات العامة، ومتطلبات الإمبريالية العسكرية، وأشكال التواصل الشعائري بالآخرين خارج نطاق العائلة، كل ذلك أصبح واجبًا؛ إنه واجبٌ خضع له الرومان خضوعًا سلبيًّا متصاعدًا. صحيح أنهم كانوا ما زالوا يمتثِلون لقواعد الشأن العام (res publica)، غير أنهم كانوا ينخرطون فيه بشغف متناقص. ومع اختفاء سفك الدماء من حياة الروماني العمومية، بحث في حياته الخصوصية عن مستقَر للتعبير عن طاقاته العاطفية، وعن مبدأ جديد للإيمان والالتزام. وكان هذا الالتزام الخاص من نمط زهدي، أي الهروب من العالم الخارجي ومن شكليات الشأن العمومي بصفته جزءًا من ذلك العالم. الالتزام الذي نتكلم عنه كان قد مسَّ فِرقًا مختلفة في الشرق الأدنى، من بينها فِرق لم تتأخر المسيحية عن الهيمنة عليها. ومن ثم توقفت المسيحية عن أن تكون ممارسة روحية سرية، فظهرت إلى العلن، وأصبحت المبدأ الجديد للنظام العام.

في أيامنا كذلك، أصبحت الحياة العمومية واجبًا شكليًّا. فصِلات معظم المواطنين بالدولة تتسم بالخضوع والقبول السلبي، لكن ضعف كل ما يتصل بالمجال العمومي يذهب بعيدًا في تجاوزه الشؤونَ السياسية. فالتعارف والتبادلات الشعائرية مع الغرباء (strangers) تُعَدّ، في أحسن الأحوال، سلوكًا جافًّا وشكليًّا، إن لم يكن مصطنَعًا. الغريب نفسه يُعَايَش بوصفه شخصًا مهدِّدًا، وقلة من الناس تستمتع فعلًا في عالم الأشخاص الغرباء هذا الذي تنشئه المدينة الكوزموبوليتية [العالمية المتنوعة]. ويتشكل الشأن العام إجمالًا من تلك الروابط والالتزامات المتبادَلَة التي تسود بين الأشخاص الذين لا يرتبطون بروابط الدم أو القربى؛ هؤلاء الناس هم الحشد، "الشعب"، ونظام الحكم (polity)، بدلًا من روابط العائلة أو الأصدقاء. واليوم، على غرار الحقبة الرومانية، غالبًا ما تقتصر المشاركة في الشأن العام على مجاراة الآخرين، بينما تشهد منتديات الحياة العمومية، مثلها مثل حياة المدينة، حالة من الانحطاط.

يَكمُن الفرق بين الماضي الروماني والحاضر الحديث في البديل، في المعنى الذي تتخذه الحياة الخصوصية في كل من الحقبتين. فالرومان كانوا يبحثون في الخصوصي عن مبدأ يواجهون به العمومي، مبدأ ركيزته التجاوز الديني للعالم المادي. أما في الحياة الخصوصية اليوم فلا نبحث عن مبدأ، بل نتبصر في نفسياتنا، وما يمكن أن تمتلكه مشاعرنا الشخصية من أصالة. لقد سعينا لجعل الوجود الخاص، [أي] وحدنا مع أنفسنا، ومع العائلة والأصدقاء، غايةً قائمة بذاتها.

تبقى الأفكار الحديثة عن سيكولوجيا هذه الحياة الخصوصية أفكارًا مشوَّشَة. وفي الوقت الحالي، هناك أقلية من الناس يؤكدون أن حياتهم النفسية ولدت ولادة ذاتية تلقائية في معزل عن الشروط الاجتماعية، وعن تأثيرات البيئة المحيطة. مع ذلك، غالبًا ما نتصرف تمامًا وكأن النفسانية تمتلك حياة داخلية خاصة بها. هذه الحياة النفسية تبدو قيمتها كبيرة وشديدة الرهافة، بحيث تذوي في حال تَعرُّضها لوقائع العالم الاجتماعي القاسية. وهي حياة لا يمكنها أن تتفتح إلا إذا كانت محمية ومنعزلة. لقد أصبحتْ أنا كلِّ فرد هي العبء الأساس لديه. وأصبحت معرفة الذات بدورها هدفًا وغاية في ذاتها، بدلًا من أن تكون وسيلة من وسائل

معرفة العالم. هذا الاستغراق في الذات هو، بالضبط، ما يمنعنا حتى من تحديد مفهوم الخصوصي وطبيعته، وتعريف شخصيتنا الخاصة بوضوح، سواء في نظرنا أو في أنظار الآخرين. وفي الواقع، كلما تخصصت نفسيتنا [أي استغرقت في الخصوصي] تضاءلت حيويتها، وصار صعبًا علينا اختبار إحساسٍ ما والتعبير عنه.

لم يكن بحث الروماني ما بعد أغسطس عن آلهة شخصية شرقية يمتُّ إلى العالم العمومي بأي صلة. والآلهة هذه تنتهي إلى فرض نفسها وإخضاع القانون العسكري والعادات الاجتماعية لمبدأ أعلى مختلف كليًّا. وفي السُنَّة الراهنة المعنية بتعريف الخصوصي، فإن وضوح العلاقة بين التجربة اللاشخصية والتجربة الخاصة بعيدَ المنالِ. ولا نجد "معنى" للمجتمع إلا بأن نجعله نسقًا نفسيًّا فسيحًا. ويمكننا، بطبيعة الحال، فهم دور الإنسان السياسي بوصفه من يصوغ القوانين ويعمل على تطبيقها، لكن هذا النوع من النشاط لا يهمنا إلا عندما نريد فهمَ الدور الذي تقوم به شخصية من الشخصيات على الحلبة السياسية، أي فهم دور الشخصية في الصراع السياسي. ونحن نحكم على "صدقية" الإنسان السياسي الذي يترشّح لمنصب عام، أو على "شرعيته"، بناءً على شخصيته، لا بناءً على أفعاله أو البرامج التي يتبناها. يمكن مقارنة الهوس بالأشخاص، على حساب العلاقات الاجتماعية اللاشخصية، بمصفاة تزيل ألوان فهمنا العقلاني للمجتمع. الوسواس نفسه يحجب الأهمية الثابتة للطبقات في المجتمع الصناعي المتقدم، ويفضي بنا إلى اعتبار الجماعة الأهلية بمنزلة وسطٍ يبيح التضامن بين الأفراد، وإلى الحط من شأن العلاقات الاجتماعية بالغرباء، تلك العلاقات التي تتكون وتنشأ خصوصًا في المدن. وبعَوْد ساخر للأشياء، تكبح هذه الرؤية النفسية تطور بعض القوى الأساسية في شخصيتنا، كاحترامنا حياةَ الآخرين الخصوصية. وهي تمنعنا أيضًا من فهم أن كل أنا، هي، في وجه من وجوهها، متحف للأهوال، وأن العلاقات المتمدِّنة بين الأفراد لا يمكنها أن تنشأ إلا إذا كتمنا بعناية رغباتنا الخبيثة الصغيرة وأطماعَنا وضروبَ غيرتنا.

تأسس ارتقاء علم النفس الحديث، ولا سيما علم النفس التحليلي، على قناعة مفادها أن فهم المكوِّنات الداخلية للذات الخاصة بها من دون أفكار استثنائية عن الشيطان أو الخطيئة، قد يتيح للبشر تحرير أنفسهم من هذه الأهوال، فينعتقون ليشاركوا بالكامل وبطريقة أكثر عقلانية في حياة تقع خارج حدود رغباتهم الخاصة.

وباتت جماهير الناس معنية بالتاريخ الفردي وبالعواطف الخاصة بها، وذلك أكثر من أي وقت مضى؛ وأثبت هذا الاهتمام أنه فخ، أكثر من كونه تحررًا.

ولمّا كان لهذا التصور النفسي للحياة عواقب واسعة النطاق، فإنني أريد أن أعرِّفه على نحو قد يبدو غير ملائم لأول وهلة: هذا التصور هو رؤيةٌ حميمة الطابع للمجتمع. وكلمة "حميمية" هذه تستحضر الدفء والثقة والتعبير المنفتح عن الأحاسيس؛ ولكن لأننا نتوقع منافع نفسية تحديدًا من طيف مجالات تجربتنا كافة، ولأن جانبًا كبيرًا من الحياة الاجتماعية الذي له معنى لا يمكنه أن يوفر لنا هذه المكافآت النفسية، يتراءى لنا أن العالم الخارجي والمجرَّد من الهوى الشخصي يخوننا، ويبدو لنا تافهًا وفارغًا.

أجدني، بمعنى من المعاني، أدور حول الحجة التي استخدمها [عالم الاجتماع الأميركي] ديفيد ريزمان (David Riesman) في روايته **الحشد المتوحِّد** (*The Lonely Crowd*). فهو يقارن مجتمعًا موجَّهًا داخليًّا، يتحرك الناس فيه انطلاقًا من التزامات مرتكِزة على أهداف ومشاعر أحسوها بأنفسهم، يقارنه بمجتمع يوجِّهه الآخرون، تعتمد فيه هذه العواطف والالتزامات على ما يعتقده الناس أحاسيسَ الآخرين. اعتقد ريزمان أن المجتمع الأميركي، ويليه مجتمع أوروبا الغربية، كانا معًا قيد الانتقال من النمط الأول إلى النمط الثاني؛ لكن ينبغي قلب هذا التسلسل. فالمجتمعات الغربية في حال انتقال من نمط مجتمعي يكاد يديره الآخرون إلى مجتمع يدار من الداخل، على الرغم من استحالة التحدث عما يتكون منه هذا الداخل. ونتيجة لذلك، نشأ التباس بين الحياة العمومية والحياة الخصوصية. فالناس يَحلّون الشؤون العامة من زاوية الأحاسيس الشخصية، في حين أن المسائل العامة يجري التعامل معها بالشكل الصحيح، من خلال أعراف تحمل معانيَ لاشخصية [مجرَّدة من الهوى الشخصي] فحسب.

هذا الالتباس يمكن أن يبدو مشكلة أميركية بشكل خاص، فالمجتمع الأميركي يعلي كثيرًا من شأن التجربة الفردية. وهذا قد يقود أبناء هذا المجتمع إلى تقييم الحياة الاجتماعية كلها وفقًا للمشاعر الشخصية. لكن ما يعاش هنا ليس فردانية سوية وصارمة، بل هو، بالأحرى، قلق في شأن الشعور الفردي الذي يُلقي بثقله على الناس في صلاتهم بالعالم. ومصدر هذا القلق ينبغي البحث عنه في التقلبات الكبرى التي شهدتها الرأسمالية، وفي الإيمان الديني. وهي تقلبات لا تنحصر ضمن الحدود الوطنية.

إن القلق الذي نشعر به إزاء الإحساس يمكن عدُّه كذلك نتيجةً لانتشار "البحث عن الشخصية" ذي الطابع الرومانسي ولابتذاله. لا يجري هذا البحث في حيز مجتمعي فارغ، فظروف الحياة اليومية هي ما يحث الناس على هذا البحث عن تحقيق الذات. والدراسات الأدبية المخصَّصة لهذا البحث لم تُعنَ بتقدير الثمن الاجتماعي الباهظ الذي يتطلبه هذا البحث.

يتطلب تأكُّل الحياة العمومية أيضًا نمطًا خاصًّا من الدراسات المختلفة عن التاريخ الاجتماعي الشائع. فالكلام عن التعبير في العلن يقود طبعًا إلى السؤال: بأي أنماط تعبيرية يستطيع الكائن البشري التعبير عن العلاقات الاجتماعية؟ حين يجامل امرؤ شخصًا غريبًا، على سبيل المثال، هل يتصرف من وجهة نظر تعبيرية مثلما يتصرف الممثل على خشبة المسرح؟ من الصعب الكلام عن فراغٍ تعبيري ما في الحياة العمومية من دون أن نمتلك، مسبقًا، نظرية في ماهية التعبير. هل هناك، على سبيل المثال، فرق بين التعبير الملائم للعلاقات العمومية والتعبير الملائم للعلاقات الخصوصية؟

حاولتُ بناء نظرية في التعبير في العلن مستخدمًا التاريخ والنظرية معًا. وفي هذا المؤلَّف، لجأتُ إلى التحولات الملموسة التي طالت السلوك، والقول، والزي، والمعتقدات في العلن، لبناء نظرية في التعبير الاجتماعي. وأوحى التاريخ بمفاتيح تمهِّد لبلورة هذه النظرية، إذ حاولتُ في الوقت نفسه استعمال الرؤى المجرَّدة المكتسَبة بصفتها مفاتيح لطرح أسئلة جديدة تتعلق بالسجل التاريخي.

كل بحث جدلي لا تكتمل حجته إلا بعد إنجاز المؤلَّف. فمن المستحيل الإعلان عن "النظرية" دفعة واحدة وعرضُها كخريطة لاستكشاف الحقل التاريخي. إلى ذلك، وتوخِّيًا للوضوح، أريد في هذا الفصل أن أتفحص تطور الأبعاد الاجتماعية والسياسية للمسألة العمومية في المجتمع الحديث. أما في الفصل الثاني، فسأعرض ملامح نظرية التعبير في العلن. وهكذا سننتقل على الدوام من النظري إلى التاريخي، والعكس بالعكس، في بقية أجزاء الكتاب.

الحب خارج الحيز العمومي

إن للمشكلة العامة في المجتمع المعاصر بعدَيْن: لا يثير كل من السلوك والقضايا اللاشخصية الكثيرَ من الشغف، في حين يبدأ السلوك والقضايا بإثارة الشغف

عندما ينظر المرء إليها، خطأً، على أنها قضايا شخصية. وبسبب وجود هذه المشكلة العامة المزدوجة، تتولَّد مشكلة ضمن الحياة الخصوصية. يفقد عالَم المشاعر الحميمة الحدودَ كلها، ولا يعود مقيَّدًا بعالم عمومي يجد فيه الناس بديلًا ويستثمرون أنفسهم بشكل تعويضي. وهكذا، يشوّه تأكُّل الحياة العمومية القوية العلاقات الحميمة التي تهم الناس حقًّا. وليس من مثلٍ يمكنه أن يعبِّر أفضل تعبير عن هذا التشوه سوى التطور، في الأجيال الأربعة الأخيرة، الذي خضعت له تجربة الحب الجسدي التي هي الأكثر حميمية في تجاربنا الشخصية.

خضع الحب الجسدي في تلك الحقبة لإعادة تعريف؛ فهو لم يَعُد يفسَّر من زاوية إيروتيكية شهوانية، بل من زاوية جنسانية. كانت الإثارة الشهوانية في العصر الفيكتوري تستتبع علاقاتٍ اجتماعيةً، بينما تتعلق الجِنسانية بالهوية الشخصية. كانت الإيروتيكية تُترجَم بتعبير جنسي يشفُّ عن أفعال اختيارية تفاعلية، مكتومة أو مقموعة. أما الجنسانية فلم تكن تصرفًا أو فعلًا، فهي إجمالًا حالة يشكِّل فيها الفعل الجسماني للحب الجسدي النتيجة السلبية والنهاية الطبيعية لإحساس حميم يختبره شخصان.

كادت إيروتيكية برجوازيي القرن التاسع عشر تقتصر على شعور بالخوف على نحو كاملٍ تقريبًا، ولم يكن يُعبَّر عنها إلا عبر مصفاة تَلجُمها وتقمعها. ذلك أن كل تصرف جنسي كان يتسم بإحساس من الانتهاك: انتهاك الرجل جسدَ المرأة، انتهاك العشاق السُنَّة المجتمعية، والأخطر أخلاقيًّا انتهاك المِثليين هذه السُنَّة. احتجت شرائح كبيرة من المجتمع الحديث على الخوف والقمع، وهذا أمر إيجابي. بيد أن هذه الأمثلة للحميمية في المخيلة المعاصرة صاحَبَتها ردة فعل ضد الفكرة التي تعتبر الحب الجسدي تصرفًا أو فعلًا، يجب أن تكون له، مثله مثل أيِّ سلوك اجتماعي آخر، قوانين وحدود وقواعد تضفي عليه أهمية خاصة. أما الجنس، على العكس من ذلك، فاعتُبِر كاشفًا للأنا. ثمة عبودية جديدة حلّت محل العبودية القديمة.

يُخيَّل إلينا أن الجنسانية تحدد الحقل الواسع لمَن نحن وبماذا نشعر. بيد أن الجنسانية التي تُعتبر حالًا تعبيرية، أكثر مما هي فعلًا تعبيريًّا، تشوبها الفوضى (entropic)، وهي تتصل من قريب أو من بعيد بجوانب تجربتنا كافة. ونحن نكتشفها ونكشف عنها ونتأقلم معها، لكننا لا نسيطر عليها. فنحن نعتبر التحكم في الجنسانية